

ميتافيزيقا العلة والنفس والمعرفة عند ابن سينا؛ قراءة فلسفية في تكامل الوجود والعقل والروح

عبد المنعم همت^١

المستخلص

تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف فلسفة ابن سينا في فهم العلاقة بين الله والكون، مع التركيز على مفاهيم الإبداع الإلهي، العلة العليا، النفس، والعلم الإلهي والنفسي، ومحاولة ربطها ضمن نسق ميتافيزيقي متكامل. السؤال الرئيس الذي توجه إليه الدراسة هو: كيف يفسر ابن سينا الإبداع الإلهي والعلم النبوي وعلاقتهما بالنفس والوجود البشري في إطار فلسفته الشاملة؟ تأتي أهمية الدراسة من كونها تسلط الضوء على رؤية فلسفية متكاملة لفكر ابن سينا، تُبرز استمرارية الفعل الإلهي وترباط الموجودات مع المصدر الأول للوجود، كما تبين دور النفس البشرية في استيعاب هذا النظام وتحقيق الفعل الأخلاقي والمعرفة. اتبعت الدراسة المنهج التحليلي-الفلسفي القائم على دراسة النصوص الأصلية لابن سينا، ومقارنتها بمفاهيم الفلاسفة المسلمين السابقين، مثل الكندي، مع التركيز على الأبعاد الميتافيزيقية، المعرفية، والأخلاقية. أظهرت الدراسة أن ابن سينا يربط بين العلة العليا والإبداع الإلهي والمادة والصورة والنفس والعلم، ليخلق نظامًا مترابطًا يجمع بين الوجود، العقل، المعرفة، والفعل الأخلاقي، مما يجعل الإنسان شريكًا واعيًا في النسق الكوني. توفر هذه القراءة فهمًا متماسكًا لفلسفة ابن سينا، وتوضح كيف يمكن للفكر الإسلامي الكلاسيكي أن يقدم نموذجًا للربط بين النظرية الوجودية والمعرفة العملية والأخلاقية، بما يفتح آفاقًا جديدة لدراسة التكامل بين الإنسان والكون والله.

الكلمات المفتاحية: الإبداع الإلهي، العلة العليا، النفس الإنسانية، العلم الإلهي، الوجود العقلي

دانشگاه مجازی المصطفی

المقدمة

يُعدّ ابن سينا أحد أبرز فلاسفة الإسلام الذين أسهموا بعمق في تشكيل البنية الميتافيزيقية للفلسفة الإسلامية، إذ استطاع أن يقدم نسقاً فلسفياً متكاملًا يجمع بين النظر الوجودي والرؤية المعرفية والأفق الأخلاقي. فقد انشغل، عبر مؤلفاته الكبرى مثل الشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات، بمحاولة تفسير العلاقة بين الله والكون، وبيان موقع الإنسان داخل هذا البناء الوجودي الواسع، مستنداً إلى منهج يجمع بين العقل البرهاني والاشتغال العميق على المفاهيم الميتافيزيقية.

تأتي هذه الدراسة في سياق الاهتمام المعاصر بفكر ابن سينا، لا بوصفه مجرد امتداد لجهود الفلاسفة المسلمين السابقين، وإنما لكونه قدّم رؤية فلسفية أصيلة تقوم على الربط بين الإبداع الإلهي والعلّة الأولى، وبين النفس الإنسانية والعقل الفعّال، في إطار منظومة ترى الكون حركة دائمة متجهة نحو الكمال. ويستدعي تحليل هذا النسق الفلسفي الوقوف عند مبادئه الأساسية، وفي مقدمتها مفهوم الإبداع الإلهي وكيفية صدور الكون عن الله، والعلاقة بين العلم الإلهي والعلم النبوي، ثم دور النفس في إدراك الحقائق وتحصيل المعرفة.

وتُعدّ دراسة هذه المفاهيم ضرورة لفهم العمق الفلسفي لفكر ابن سينا، إذ تكشف عن رؤية تتجاوز الطابع الجدلي إلى بناء تصور شامل عن الوجود والإنسان. كما تُبرز أهمية البحث في كيفية تفاعل النفس البشرية مع المبادئ الوجودية العليا، وما ينتج عن ذلك من إمكانات معرفية وأخلاقية تؤثر في الفعل الإنساني ومسار الحياة.

وتسعى هذه الدراسة إلى تقديم قراءة تحليلية جديدة لهذا الترابط بين الله والكون والإنسان في فلسفة ابن سينا، من خلال الإجابة عن السؤال الرئيس المتعلق بطبيعة الإبداع الإلهي وكيفية ارتباطه بالعلم النبوي والنفس والوجود البشري. وتطمح إلى الإسهام في إثراء الحقل الفلسفي الإسلامي بطرح يبرز وحدة النسق السينوي وقدرته على تفسير العلاقة بين الوجود والمعرفة والأخلاق ضمن رؤية ميتافيزيقية متماسكة.

المحور الأول: مفهوم العلة والمعلول في البناء الوجودي عند ابن سينا

يشكّل مفهوم العلة والمعلول حجر الأساس في البنية الفلسفية والميتافيزيقية عند ابن سينا، إذ يعيد ترتيب العلاقة بين الموجودات بطريقة تجعل الوجود نسقاً مترابطاً قائماً على الضرورة والاتصال لا على المصادفة والانفصال. كل موجود ممكن محتاج إلى ما يخرجّه من الإمكان إلى الفعل، فلا يتحقق وجوده إلا عبر علّة خارجية متقدمة عليه في مرتبة الوجود.

يبين ابن سينا هذا التفريق بين الذات وما يطرأ عليها من وجود بالفعل في قوله: «العلّة لكل ذات وجود آخر بالفعل من وجودها هذا بالفعل ووجود هذا بالفعل ليس من وجود ذلك بالفعل» (ابن سينا، ٢٠٠٦، ص ١٠٠).

يشير الشيخ الرئيس إلى أن الوجود الفعلي لا يصدر من جوهر المعلول ذاته، بل هو نتيجة وجود علّة أخرى مسبقة. فكرة "الوجود الممنوح" أو "الوجود الملزوم" تجعل المعلول عاجزاً عن الاكتفاء بذاته ويحتاج إلى وجود علّة تمنحه الفعل. يؤكد ابن سينا ذلك بقوله: «(والمعلول هو كل ذات وجودها غير معنى قولنا مع وجودها بالفعل لا من ذاتها لأن ذاتاً أخرى موجودة بالفعل يلزم عنها وجود هذه الذات)» (المصدر السابق، ص ١٠٠).

من هذا المنطلق، يصبح وجود المعلول مرتبطاً بالضرورة بالعلّة العليا، فلا يمكن فصله عنها أو تصوره بمعزل عنها. العلاقة بين العلّة والمعلول عند ابن سينا هي علاقة وجودية وعقلية متأصلة في طبيعة الأشياء نفسها، إذ أن المعلول لا يمتلك وجوده بذاته، وإنما يتحقق وجوده الفعلي من خلال علّة قائمة بذاتها. هذا المفهوم يعكس فكرة "الوجود الممنوح" أو "الوجود الملزوم"، حيث يحتاج كل موجود إلى مصدر يمنحه الفعل والكيونة باستمرار.

إن الوجود المعلول يضمن الاتصال المستمر بالعلّة، ويظهر في نسق مترابط يحكم الكون كله، فالعلّة العليا هي المصدر الحقيقي والأساسي لوجود كل ممكن. إن هذا النسق يرتبط بالزمان وهو جوهري في طبيعة الموجودات، إذ يجعل وجود المعلول أمراً ضرورياً ومؤكداً، لا نتيجة للصدفة أو تتابع ميكانيكي.

من الناحية المعرفية، هذا الارتباط يمنح المعلول معنى وفهماً. معرفة الإنسان للعالم تتطلب إدراكه للعلاقة بين العلّة والمعلول، إذ تظهر الأسباب والنتائج كنسق مترابط يعكس النظام الكوني الكامل. الفلسفة السينية تكشف أن كل موجود ليس مجرد حدث عابر أو تراكم للعناصر، وإنما جزء من كيان مترابط ومتكامل، حيث ينسجم الوجود مع العقل والضرورة، ويعكس ترتيب الكون وفق نظام إلهي محكم.

تسعى فلسفة ابن سينا لتشمل العلّة العليا أو الواجب الوجود، المصدر الأول لكل الموجودات الممكنة، بحيث تعتمد كل المعلولات على هذا المصدر لتحقيق بالفعل. اتحاد العلّة بالمعلول يمكن العقل من إدراك النظام الكوني وفهم العلاقات بين الموجودات وربطها بالغاية العليا ما يمنح فلسفة العلّة والمعلول بعداً وجودياً ومعرفياً في آن واحد. إن العلّة والمعلول عند ابن سينا يشكلان قلب فلسفته التي تتناول الوجود، حيث تصبح العلّة العليا المصدر الأساسي لكل الموجودات والمعلولات تعتمد عليها لتحقيق بالفعل، والعلاقة بينهما ضرورية ووجودية، ما يمهد لفهم أعمق للوجود والنفس والفعل الأخلاقي والمعرفة في نسق مترابط ومتسق فلسفياً.

العلّة الفاعلة ومعيار الوجود

ينعكس تصور العلّة والمعلول عند ابن سينا بشكل واضح على فهمه لطبقات الوجود، إذ يميز بين مستويات مختلفة من الكمال والضرورة. الوجود الأكثر كمالاً هو الوجود المستغني عن كل شيء، الذي يمتلك ذاته بتمامها ولا يحتاج إلى أي سبب خارجي لتحقيق وجوده. هذا الوجود يُعرف عند ابن سينا بالواجب الوجود، وهو المصدر الأساسي لكل الموجودات الممكنة، فالوجودات الأخرى تعتمد عليه لكي تتحقق بالفعل.

يمكن القول إن هذا الوجود الأعلى هو علة الجميع، والسبب النهائي لكل ما يظهر في الوجود، حيث تمنحه هذه العلة القدرة على الوجود الفعلي وتحدد طبيعة الموجودات ومستوى كمالها.

الموجودات الأخرى، أي الممكنة، لا تتحقق إلا من خلال اتصال دائم ومستمر بالعلة العليا، فوجودها ليس نابعاً من ذاتها، وإنما مكتسب من العلة الفاعلة. هذا الارتباط يجعل وجود المعلولات ثابتاً ومستمرًا في كل لحظة، وليس مجرد حدث مؤقت أو شيء يتحقق في الماضي فقط. العلة الفاعلة تمنح كل ممكن القدرة على الوجود بالفعل في كل وقت، ما يجعل الكون نسقاً مترابطاً يحكمه الاتصال الدائم بين العلة والمعلول. هذا الفهم يميز فلسفة ابن سينا عن المفاهيم التقليدية للعلة التي غالباً ما ترتبط ببداية زمنية، بينما يرى ابن سينا أن العلة الفاعلة تستمر في منح الوجود في كل لحظة دون انقطاع.

يرى ابن سينا أن العلاقة بين المعلول والعلة عبارة عن اتصال دائم ومستمر يشبه فيضاً مستمراً لا يتقطع. وجود كل كائن ممكن يتحقق بالفعل في كل لحظة نتيجة هذا الاتصال المستمر بالعلة العليا، وليس بسبب فعل منفصل أو عابر وقع في الماضي فقط. بهذا الفهم يصبح الكون نسقاً مترابطاً، حيث تعتمد كل الموجودات في كل لحظة على العلة العليا، ولا وجود لأي فجوة أو انفصال بين المعلولات وعلة، ما يعكس الانسجام الكامل للنظام الوجودي الذي رسمه ابن سينا.

هذا الفهم يحمل بعداً فلسفياً عميقاً إذ يقدم معياراً لتقييم كمال الوجود: كل ما يمتلك استقلالية عن العلة يعتبر وجوداً كاملاً بذاته، أما الموجود المحتاج فهو وجود ممكن ومستمد من العلة. هذا التمييز بين الواجب والممكن يرسخ نسقاً فلسفياً مترابطاً، حيث تصبح العلاقة بين الوجود والمعلولية والفعل الإلهي واضحة ومتكاملة. كل كائن مرتبط بالعلة ليس في لحظة خلقه فقط، بل في دوام حضوره واستمراره.

التصور نفسه يتيح فهم التناغم بين الفعل الإلهي والنفس البشرية. الإنسان، كمخلوق محتاج، يعتمد على علة في كل لحظة ليصبح فاعلاً في العالم ويحقق كماله. العلاقة بين العلة والمعلول هنا قاعدة وجودية تشمل كل الموجودات وعلاقاتها، وترتبط بين الوجود والكمال والضرورة المستمرة للعلة الفاعلة، ما يجعل فلسفة ابن سينا نظاماً متماسكاً يجمع بين عناصر الكون وعقله وفعل الإنسان.

البعد المعرفي للعلة

تتجاوز علاقة العلة بالمعلول، عند ابن سينا، البعد الوجودي لتصل إلى بعد معرفي عميق. المعلول لا يقتصر وجوده على كونه محتاجاً للعلة، وإنما يمكن إدراكه وفهمه من خلال علة، فالعلة تحتل مرتبة أعلى من المعلول على الصعيدين الوجودي والعقلي. هذا يجعل العلاقة بين العلة والمعلول أكثر من مجرد سبب ونتيجة، إذ تصبح نموذجاً لفهم الكون وطريقة عمله.

نظام العلة والمعلول يتحول إلى أداة معرفية تمكن العقل البشري من اكتشاف الترتيب الوجودي للعالم. عندما يدرس الإنسان الموجودات، يدرك أن كل شيء محتاج لعلّة تمنحه الوجود، ويستنتج قواعد الاستدلال التي تربط بين السبب والنتيجة. المعرفة بهذا النسق تعني أن الإنسان لا يكفي بالمشاهدة أو التجربة فحسب، بل يصبح قادرًا على فهم المبادئ الكامنة وراء وجود الأشياء، ما يربط بين الوجود والفكر والفعل.

إدراك المعلول وفهمه يصبح مرتبطًا بفهم العلة، فتتحول المعرفة إلى انعكاس مباشر للوجود. العقل البشري، وفق هذا التصور، مشارك في فهم نسق الكون وترتيبه الضروري. هذا البعد الفلسفي يجعل التفكير عند ابن سينا وسيلة لفهم الوجود بأكمله، حيث ترتبط كل معرفة صحيحة بفهم نسق العلة والمعلول، ما يعزز قدرة الإنسان على الربط بين الميافيزيقا، العقل، والنفس، ويجعل الفلسفة أداة لفهم الكون وفهم الذات البشرية في إطار متكامل ومتربط.

العلّة والضرورة: توسيع المفهوم الأرسطي

يستلهم ابن سينا إرث أرسطو الفلسفي، لكنه يتجاوزه بتوسيع مفهوم العلة ليشمل بعدًا ميافيزيقيًا عميقًا. العلة عنده ليست مجرد سبب يؤدي إلى نتيجة سطحية، بل مبدأ وجود شامل يمنح المعلول ماهيته ووجوده معًا، بحيث يصبح كل كائن ممكن مرتبطًا بالعلّة في جوهره وكيانه. بهذا الفهم، تتجاوز العلة كونها مجرد رابط ميكانيكي أو علاقة طبيعية، لتتحول إلى نسق وجودي وعقلي متكامل يعطي للشيء كماله وكيانه في الوقت نفسه.

هذا التصور يجعل العلة شرطًا وجوديًا ضروريًا يربط بين الممكن والواجب، بين الإمكان والفعل، ويتيح قراءة شاملة للكون والنفس والعقل، حيث يصبح كل موجود في نسق مترابط من الوجود. العلة ليست مجرد ظرف مادي أو سبب خارجي، بل أساس كلي لفهم طبيعة الأشياء وطريقة تحققها بالفعل، ما يمنح الفلسفة القدرة على الجمع بين الميافيزيقا والمعرفة الإنسانية.

من خلال هذا البعد، يضع ابن سينا العلة خارج دائرة الطبيعة المحضنة، لتصبح محورًا لفهم العالم والعقل البشري. العلة هنا تفسر كيفية إدراك الموجودات والتفاعل معها، وتوضح نسق ترتيب الأشياء في الكون. المعرفة الإنسانية، وفق هذا التصور، لا تقتصر على الملاحظة أو التجربة، بل تعتمد على إدراك العلاقة الجوهرية بين العلة والمعلول، ما يجعل الفكر الفلسفي أداة لفهم الوجود بأكمله، وربط الكون بالعقل والنفس، وفتح الطريق لفهم كمال الموجودات وضرورتها المستمرة في إطار نسق مترابط ومتسق.

المحور الثاني: المادة والصورة - وحدة الوجود واستحالة الانفصال

يشكل مفهوم اتحاد المادة بالصورة، في فلسفة ابن سينا، أساسًا لفهم طبيعة الموجودات وكيفية تحققها بالفعل. المادة ليست مجرد خامة خاملة، والصورة ليست شكلاً جامدًا، بل إن وجود كل كائن ممكن

يتطلب اتحاداً فعلياً بين المادة والصورة، حيث تصبح الصورة الجوهرية معياراً لوجود الكائن بالفعل. هذا الاتحاد يمنح الكائن وحدة بنوية وكياناً متماسكاً، فلا يمكن للمادة أن توجد منفصلة عن صورتها، لأن وجودها الفعلي مرتبط بتحقيق الشكل في إطار المادة.

يؤكد ابن سينا هذا المعنى في نصه قائلًا: «ونقول أن تلك المادة أيضًا لا يجوز أن تغارق الصورة الجسمية وتكون موجودة بالفعل» (ابن سينا، ١٩٣٨، ص ٢٣٩)، مما يدل على أن أي كائن ممكن يحتاج إلى هذا الاتحاد ليصبح موجوداً فعلياً. المادة بدون الصورة تبقى مجرد إمكانية، والصورة بدون المادة لا تتحقق في العالم الفعلي، لذا يشكل الاتحاد بينهما شرطاً أساسياً لفهم الكائنات وطبيعة وجودها في الكون.

يوضح ابن سينا أن المادة عندما تكون منفصلة عن صورتها لا تمتلك أي حضور فعلي في الوجود، فالمادة تظل مجرد استعداد فارغ لا يقدر على أن يتحول إلى كائن محسوس أو معقول إلا عندما تتجسد فيها الصورة المناسبة لها. من هنا يفهم ابن سينا الوجود الفعلي بوصفه اتحاداً تاماً بين المادة والصورة، اتحاداً يخلق وحدة حقيقية للكائن ويمنحه بنية وخصائصه وقدرته على التأثير والتفاعل في العالم.

يقدم ابن سينا هذا التصور لا بوصفه مجرد تركيب طبيعي بين عنصرين، بل باعتباره ضرورة وجودية تفسر كيفية تحول الإمكان إلى فعل. المادة لا تولد الوجود من ذاتها لأنها تفتقد الفعل، والصورة لا تظهر في العالم إلا عبر مادة تتجسد فيها. لذا يصبح الوجود الفعلي لحظة يتكامل فيها الطرفان ليظهر الكائن بصفاته وكمالاته وفعله الخاص. ينعكس هذا الفهم على رؤية ابن سينا للكون كله، فالوجود عنده يمثل شبكة متماسكة من الوحدات التي تشكل من مادة وصورة، كل واحدة منها تكتسب كمالها وخصائصها من هذا الاتحاد. بهذه الطريقة يصبح كل كائن جزءاً من بناء كلي منسجم، يُسهم فيه بماهيته التي حصل عليها من صورته، وقدرته على الوجود التي حصل عليها من مادته.

يتيح هذا الفهم النظر إلى الكون ككل منظم له بنية واضحة، حيث لا وجود لشيء بلا أساس جوهري يمنحه هويته، ولا إمكانية بلا صورة تخرجها إلى الفعل. هذا التكامل يوضح عمق رؤية ابن سينا للكينونة، ويجعل فلسفته أفقاً لفهم العلاقة بين الإمكان والوجود، وبين الجوهر والتجسد، في نسق يربط العقل بالعالم، والموجودات بأصولها التي تعطيها حقيقتها وفعاليتها.

المقارنة مع الفلسفة الأرسطية

تتأثر رؤية ابن سينا بالمفهوم الأرسطي للمادة والصورة، غير أنه يفتح هذا المفهوم على أفق أعمق يجعل العلاقة بينهما جزءاً من بنية الوجود نفسه. عند أرسطو يمكن النظر إلى الجوهر بوصفه تركيباً يجمع بين مكون مادي وآخر شكلي، ويمكن تحليل هذا التركيب كعملية طبيعية تخضع لقوانين الحركة والتحول. أما

ابن سينا يرى أن هذا الاتحاد يتجاوز حدود التفسير الطبيعي ليصبح شرطاً ضرورياً لظهور الوجود الفعلي، بحيث لا يمكن للكائن الممكن أن يتحقق إلا من خلال اكتمال هذا الالتحام بين المادة والصورة.

يقدم ابن سينا تصوراً يجعل كل موجود يعكس حضوراً فعلياً نابغاً من علته الأولى، ويكتسب كماله من خلال اتحاده الداخلي. المادة من دون هذا الالتحام تبقى قابلة وغير مكتملة، والصورة لا تتخذ معناها الواقعي إلا حين تتجسد في مادة مهية لها. هذا الفهم يجعل الوجود حالة متماسكة يكشف فيها كل كائن عن انسجام داخلي يربط جوهره بفاعليته، ويمنحه القدرة على أن يكون جزءاً من النظام الكوني الذي يتدرج في مراتب الوجود.

يمتد هذا التصور ليصوغ رؤية أشمل لطبيعة الكون، حيث يظهر كل كائن بوصفه وحدة مترابطة تحققت عبر اتحاد دقيق بين المبدأ الصوري والقابلية المادية، في علاقة تمثل الخطوة الأولى نحو الانتقال من الإمكان إلى الفعل. ومن خلال هذا الفهم يصبح الوجود عند ابن سينا حركة دائمة نحو الكمال، تتحقق عبر علة عليا وتكشف في صورة المخلوقات التي تال وجودها الكامل عبر اتحاد ينسجم مع نظام الكون وعقله المنظم.

بهذا التصور، يظهر كل كائن في فلسفة ابن سينا بوصفه وحدة متكاملة تحمل تماسكها الداخلي وتكشف عن كيان فعلي يتحقق في الوجود. هذا الكائن لا يقف منعزلاً عن عله، بل يعيش في اتصال دائم معها، إذ يعتمد عليها في استمرار وجوده كما اعتمد عليها في بدنه. الوجود هنا ليس حدثاً وقع وانتهى، وإنما عملية متواصلة تتجدد في كل لحظة، ويستمد منها الكائن حضوره وقدرته على الفعل.

هذا الارتباط المستمر يجعل الموجود الممكن جزءاً من نظام كوني حي، ينظم وفق قانون العلة الفاعلة التي تمنح لكل كائن نصيبه من الوجود والكمال. كل كائن يصبح حلقة في سلسلة متساقطة من المعلومات التي تتلقى وجودها من مصدر أعلى، في انسجام لا ينفصل فيه الوجود عن سببه، وبذلك تشكل رؤية ابن سينا للكون كنسيج مترابط، تتداخل فيه العلل والمعلومات ضمن نظام عقلائي شامل، يربط بين الأشياء في مستوى الوجود وفي مستوى المعرفة على حد سواء.

يضيف ابن سينا، في هذا الجانب، منظوراً معرفياً واسعاً يفتح المجال لقراءة الكائنات من خلال بنيتها الوجودية نفسها. اتحاد المادة بالصورة ليس فقط شرطاً لوجود الكائن في العالم، وإنما هو أيضاً الشرط الذي يجعل الإنسان قادراً على فهم هذا الكائن والتواصل معه معرفياً. الصورة تمنح الكائن جوهره وحدوده وخصائصه، والمادة تمنحه قابلية الظهور والتحقق في العالم الحسي، ومن انسجام هذين المبدأين تنشأ إمكانية معرفة حقيقية تقوم على إدراك البنية الداخلية للكائن، وليس على مجرد ملاحظة سطحه أو ظواهره الخارجية.

هذا الفهم يجعل المعرفة الإنسانية امتداداً طبيعياً للبنية الوجودية للأشياء. فعندما يواجه العقل كائناً ما، فهو يتعرف على صورته من خلال مادته، ويقرأ خصائصه من خلال هذا الاندماج الذي يكشف عن حقيقته ومرتبته في

الوجود. المعرفة هنا ليست عملية منفصلة عن الكينونة، وإنما هي انعكاس مباشر لها، لأن العالم عند ابن سينا ليس مجرد تجمع لأشياء مبعثرة، بل نظام مترابط تكرر فيه العلاقات نفسها بين المادة والصورة في كل مستويات الوجود. من خلال هذا المنظور يصبح اتحاد المادة بالصورة مبدأ جامعاً بين الميثافيزيقا ونظرية المعرفة. الكائن يتحقق في الوجود بفضل هذا الاتحاد، والإنسان يدركه بفضل البنية نفسها. المعرفة تتحول إلى قراءة دقيقة لانسجام الكون، لأن كل كائن يحمل في اتحاده الداخلي سر فهمه وإمكان تفسيره. بهذا المعنى، المعرفة ليست مجرد استنتاج أو تراكم معلومات، وإنما هي مسار عقلي يقوم على اكتشاف القواعد العميقة التي تتظم الوجود.

تقدم هذه القراءة منظوراً يجعل فكر ابن سينا أكثر اتساعاً وعمقاً من الموروث الأرسطي، لأن اتحاد المادة بالصورة يتحول في نسقه إلى مبدأ كاشف عن حقيقة الكائن وسبب ظهوره وطريقة إدراكه. الوجود في هذا السياق ليس تجميعاً لعنصرين، وإنما هو كيان كامل يحمل معناه في ذاته ويكشف عن مرتبته ضمن النظام الكوني المتصل بالعلّة الفاعلة. هذه العلة تمنح الموجودات حضورها المستمر وتجعلها قابلة للفهم وفق منطق مترابط يتيح للعقل الإنساني قراءة الكون ككل منسجم لا تتخلله القطيعة أو الانفصال.

هذا الفهم يفتح المجال أمام رؤية واسعة للكينونة، حيث يصبح اتحاد المادة بالصورة محورياً لفهم الوجود في مستواه العميق، وليس فقط في شكله الظاهر. كل كائن يحمل داخله البنية التي تمنحه هويته الفعلية، وهذه البنية ذاتها هي التي تمكن الإنسان من إدراكه وتفسيره. فالمعرفة هنا لا تعتمد على تجميع الملاحظات أو تتبع الظواهر، وإنما تنشأ من قراءة البنية الداخلية للكائن، وهي البنية القائمة على هذا الامتزاج الذي يمنح كل موجود كيانه الحقيقي.

في ضوء هذا التصور، تتحول العلاقة بين المادة والصورة إلى أساس لفهم العالمين الحسي والعقلي معاً، لأن الإنسان حين يدرك الكائن يدرك في الوقت نفسه ما يجعله موجوداً وما يحدد مرتبته بين الكائنات. هذا الإدراك يربط المعرفة بالوجود، ويمنح العقل طريقاً لفهم العلاقات التي تحكم الكون والروابط التي تشكل بنيته. وهكذا تظهر فلسفة ابن سينا كنظام شامل يجعل الوجود شبكة مترابطة من العناصر التي تنكشف معانيها من خلال اتحاد المادة والصورة واستمرار تأثير العلة الفاعلة في منحها حضورها ومعقوليتها.

المعنى الأخلاقي والروحاني

تتقدم فلسفة ابن سينا في اتحاد المادة بالصورة نحو فهم واسع للإنسان وطبيعة وجوده، حيث لا يقف هذا المفهوم عند حدود تفسير تكون الأشياء، بل يمتد إلى الجوانب الروحي والأخلاقي. النفس الإنسانية تحتاج إلى هذا الارتباط الموحد مع الجسد حتى تعمل بصورة كاملة، فهي لا تدرك ولا تتحرك ولا تفكر إلا من خلال هذا الاتحاد الذي يمنحها القدرة على ممارسة وظائفها والاتجاه نحو الكمال.

هذا الفهم يجعل الإنسان كائناً يتكوّن من عناصر متداخلة تتعاون في تشكيل وعيه وسلوكه. النفس ترتقي بقدر ما يتحقق انسجامها مع جسدها، وكلما ازداد هذا الانسجام أصبحت أكثر قدرة على اكتساب المعرفة الصحيحة والتمييز بين الأفعال. ومن خلال هذا البناء الداخلي يتولد السلوك الأخلاقي؛ فالإنسان لا يصل إلى الفعل الصائب إلا إذا فهم موقعه في العالم وأدرك الصلة التي تربطه بالقيم العليا.

تأخذ العلاقة بين النفس والجسد بعداً معرفياً متيناً في فلسفة ابن سينا، لأن اتحاد المادة بالصورة يتيح للعقل الإنساني أن يفهم جوهر الكائن ويستوعب حقيقته. هذا الاتحاد يمنح الأشياء حضوراً واضحاً في الذهن، ويمكن المعرفة الفلسفية من النظر إلى الكون بوصفه منظومة متناسقة. ومن خلال هذا الإدراك يكتسب الإنسان قدرة أكبر على الربط بين سلوكه الشخصي وترتيب الوجود كله، فتظهر الأخلاق في صورة امتداد طبيعي للمعرفة والكمال الروحي.

بهذا التكوين يصبح الإنسان وحدة متماسكة يمكنها التفاعل مع العالم الخارجي دون انفصال عن جذورها الوجودية. وكلما ازداد وعيه بوحدته الداخلية اتسعت رؤيته للكون واتضحت علاقته بالعلة الفاعلة التي تمنح الأشياء وجودها. وهكذا تشكل فلسفة عميقة تجمع بين الوجود والمعرفة والأخلاق في إطار واحد، وتكشف أن اكتمال الإنسان لا يتحقق إلا عندما يفهم ذاته والعالم في ضوء هذا الترابط، ويجعل من حياته مساراً نحو الكمال الشخصي والاجتماعي.

المحور الثالث: النفس بين أرسطو وابن سينا - من التعريف الطبيعي إلى الكمال الوجودي

يمثل مفهوم النفس عند ابن سينا إحدى الركائز الكبرى لفهم الإنسان في فلسفته، ويكشف عن عمق رؤيته التي تجمع بين التحليل العقلي والبعد الوجودي. فابن سينا يتعامل مع النفس ليس بوصفها مرتبة من مراتب الطبيعة فحسب، بل بوصفها جوهرًا يتجاوز المادة ويمنح الكائن الإنساني حضوره الحقيقي في العالم. وقد انطلق من تعريف أرسطو للنفس: «كل جسم طبيعي ذي حياة» (أرسطو، ١٩٤٩، ص ٤٢).

هذا التعريف يضع النفس في إطار طبيعة الكائن الحي بوصفها مبدأ حركة ونمو وتغذية. غير أن ابن سينا رأى أن هذا التحديد لا يكفي لتفسير حقيقة النفس الإنسانية، لأن الإنسان، في نظره، كائن يملك بعداً عقلياً وروحياً لا يمكن رده إلى الطبيعة المادية وحدها. لذلك قدّم تعريفه الشهير الذي وسّع به الدائرة وأدخل النفس في مجال الكمال الوجودي: «النفس هي كمال جسم طبيعي ذي حياة بالقوة» (ابن سينا، ٢٠٠٦، ص ٨١).

هذا التعريف يكشف اختلافه الجوهرى عن الفهم الأرسطي. فبينما يركز أرسطو على الطبيعة الحية من حيث هي حركة فيزيائية وبيولوجية، يرى ابن سينا أن النفس تمنح الجسد كماله الأسمى؛ فهي ليست مجرد محرك، بل هي ما يجعل الجسد يبلغ صورته الفعلية الممكنة. فالجسد، من دون النفس، يظل عند حدود الاستعداد والإمكان، أما النفس فهي التي تنقله إلى الفعل والحياة الحقيقية.

ويُظهر هذا التفسير أن ابن سينا يرى النفس باعتبارها المبدأ الذي يحدث التحول الحاسم من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل. إنها جوهر فعّال يضفي الجسد ويمنحه القدرة على إدراك العالم والتفاعل معه. ولهذا لا تُختزل النفس في العمليات الحيوية، يمكننا القول بأنها تمتد لتشمل القدرة على التفكير والتأمل واستيعاب الكليات، وهي قدرات يؤكد ابن سينا أنها لا يمكن أن تصدر عن مادة محضّة، وأكد أنها تحتاج إلى جوهر غير مادي يقوم عليها.

ومن هنا يتضح أن النفس عند ابن سينا تمثل نقطة التقاء بين العالمين: عالم المادة وعالم العقل. فهي ترتبط بالجسد وتفعّله وتديره، إلا أن حقيقتها تتجاوز الحدود المادية. وقد أراد ابن سينا بهذا التصور أن يبين أن الإنسانية تُفهم من خلال هذا الكمال الذي يُضفي على الجسد معنى الحياة الواعية ولا يفهم من خلال الجسد وحده.

إن توسعة ابن سينا لتعريف النفس سمحت له ببناء نظام فلسفي يوفق بين الطبيعة والميتافيزيقا، وبين الحركة العضوية والحياة العقلية. ومن خلال هذا الفهم، يصبح الإنسان كائناً ذاتية مركبة، يمتلك في ذاته استعدادات طبيعية تُفعلها النفس، ونفساً ترتقي به نحو الإدراك العقلي والمعرفة. بهذا، يتحول مفهوم النفس إلى محور أساسي لفهم الوجود الإنساني بكل أبعاده.

يعكس هذا فهم ابن سينا للنفس ككيان مركب مادياً مرتبط بالجسم الطبيعي الذي يحمل الحياة بالقوة وجودياً يمنح الجسم كماله ويجعله موجوداً بالفعل معرفياً وأخلاقياً يفتح المجال لتطور العقل والسلوك الفاضل.

من هذا المنطلق تصبح النفس عند ابن سينا المفتاح لفهم الإنسان ككائن متكامل فهي ليست مجرد مبدأ حياة بل جوهر يربط بين الجسم العقل والمعرفة وبتيح تحقيق الكمال الوجودي والأخلاقي في آن واحد. هذا التصور يوسع المفهوم الأرسطي للنفس ويمنحه عمقاً ميثافيزيقياً يجعل الإنسان قادراً على الفعل الواعي والإدراك الكامل للوجود والعلّة العليا التي تحكم النسق الكوني.

النفس والكمال الوجودي

يضيف ابن سينا بعداً ميثافيزيقياً للنفس باعتبارها كمال الجسم الطبيعي. هذا الكمال يتجاوز حدود القدرة البيولوجية أو الحيوية للجسم، ويمتد ليشمل التفاعل المعرفي العميق مع العالم وفهم المبادئ الوجودية التي تنظم الكون. تمنح النفس الجسم القدرة على الفعل والإدراك والتفكير، فتتحوّل الإمكانيات الكامنة إلى واقع متكامل ووجود فعلي يحقق كمال الكائن.

تتصور فلسفة ابن سينا النفس كجسر يربط بين المادة والعقل الفعال وبين الوجود المحسوس والوجود الفكري. الجسم الطبيعي يحمل الحياة بالقوة، والنفس تمنحه القدرة على الوجود بالفعل، وتفتح أمامه أفق الوعي والمعرفة. بهذا التصور، تصبح النفس عنصراً محورياً لفهم العلاقات بين العلة والمعلول، إذ تدرك المعلول من خلال العلة العليا، كما تفسر اتحاد المادة بالصورة، حيث يرتبط الكمال الداخلي للكائن بانسجام أجزائه المادية والجوهرية.

النفس عند ابن سينا تمثل الحلقة التي تربط عناصر الوجود معاً، فهي تمنح الإنسان القدرة على الإدراك العقلي والفعل الأخلاقي والمعرفة الروحية. وتوضح فلسفته أن إدراك الإنسان للكون لا يكتمل إلا عندما يتفاعل جسده الطبيعي مع صورته الجوهرية من خلال النفس، ما يجعل كل فعل معرفي أو أخلاقي انعكاساً لوحدة الكينونة وترابط مكوناتها. بهذا المعنى، تصبح النفس مركزاً لفهم الكون الإنساني، والوسيلة التي يمكن من خلالها تحقيق الكمال الفردي والاجتماعي في إطار نسق مترابط من المادة والعقل والفعل الإلهي.

وبذلك تكون النفس عند ابن سينا محور الكمال الوجودي للإنسان، فهي تمنح القدرة على إدراك الموجودات وفهم نسق الكون، وتمكن الإنسان من تحقيق الفعل الواعي والمعرفة الأخلاقية. تتيح النفس للإنسان التفاعل الفعلي مع العالم، وتفتح أمامه أبواب الفعل الأخلاقي، ما يمنحه القدرة على التمييز بين الخير والشر وتوجيه سلوكه وفق القيم العليا.

تقدم فلسفة ابن سينا للنفس رؤية متكاملة تجمع بين الوجود والعقل والمعرفة، وتربط الإنسان بالعلّة العليا في كل لحظة من وجوده. الكمال الوجودي للنفس يجعل الإنسان كائناً قادراً على الإدراك والفعل والتفاعل الروحي والمعرفي، ما يضمن أن وجوده يتجاوز مجرد القدرة البيولوجية إلى فهم نسق الكون والمشاركة الفاعلة فيه. بهذا الشكل، تصبح فلسفة النفس عند ابن سينا نظاماً متكاملًا للكينونة الإنسانية، يربط بين الميتافيزيقا والأخلاق والمعرفة في إطار واحد مترابط ومتسق، يوضح العلاقة بين المادة والصورة، العلّة والمعلول، وبين الفعل الإنساني والفعل الإلهي، ليقدم رؤية فلسفية شاملة للكائن البشري في العالم.

المقارنة مع أرسطو

يرى أرسطو أن النفس مبدأ حياة يحيي الجسم، بينما يوسع ابن سينا هذا المفهوم ليصبح مبدأ كمال يمنح الجسم القدرة على بلوغ فعله الكامل من خلال الاتصال بالعقل الفعال والعلّة العليا. النفس عند ابن سينا كيان ميتافيزيقي يمنح الجسم كماله ويجعله فاعلاً معرفياً وأخلاقياً، ويتجاوز مجرد القدرة البيولوجية على الحياة.

يضع هذا التوسع النفس في قلب المشروع الفلسفي عند ابن سينا، حيث ترتبط مباشرة بجميع المحاور الأساسية. فالعلاقة بين العلّة والمعلول ووحدة المادة بالصورة وتحقيق الوجود الفعلي لكل كائن تنعكس في فهم النفس ككائن قادر على الفعل الواعي والإدراك الحقيقي. تصبح النفس وسيطاً يربط الإنسان بالعالم، وتمكنه من تحقيق الكمال الوجودي والمعرفي، وتجعله في اتصال دائم بالعلّة العليا. بهذا، تقدم فلسفة ابن سينا رؤية متكاملة تجمع بين الميتافيزيقا والوجود والمعرفة الأخلاقية، وتوضح كيف يشكل الإنسان كياناً مترابطاً ومتفاعلاً مع الكون وفق نظام فلسفي شامل.

البعد الروحي والأخلاقي للنفس

البعد الروحي والأخلاقي للنفس عند ابن سينا يمتد إلى ما هو أعمق من مجرد كونها مبدأ حياة للجسم. تعتبر النفس محور التطور الروحي والمعرفي للإنسان، فهي الوسيلة التي تتلقى تأثير العلة العليا بشكل دائم، وتستمد من اتحاد المادة بالصورة القدرة على الفعل العقلي والمعرفي والأخلاقي. بهذا التصور تصبح النفس نواة للوعي والفعل الهادئ والمستتير، وتمثل مركزاً للقدرة على الإدراك العميق وفهم نسق الكون.

يمكن اعتبار النفس حلقة وصل بين عالمين متكاملين؛ العالم المادي الذي يضم الجسم الطبيعي والموجودات المحسوسة، والعالم العقلي الذي يحتوي المبادئ الوجودية والمعرفية. هذا الربط يمنح الإنسان القدرة على فهم العلاقات الأساسية بين العلة والمعلول، المادة والصورة، الإمكان والفعل. من خلال هذا الفهم، يصبح الإنسان قادراً على التفاعل الواعي مع البيئة، واتخاذ قرارات مستتيرة تنبثق من إدراكه للنظام الكوني.

البعد الأخلاقي للنفس عند ابن سينا يتعدى كونها مجرد مركز للحياة أو وسيلة لإدراك الموجودات، ليصبح جوهرًا أساسيًا لتحقيق الكمال الإنساني والفعل الواعي. النفس هي الأداة التي تمكن الإنسان من التمييز بين الخير والشر، وتوجيه أفعاله بما يتوافق مع القيم العليا المتصلة بالعلّة العليا ونظام الكون الكلي. هذا التوجيه الأخلاقي ينبع من طبيعة النفس نفسها عندما تتفاعل مع جوهرها المادي والصوري، فتستمد منه القدرة على الفعل العقلاني والتصرف المستتير.

تعمل النفس كمقياس داخلي للفعل الأخلاقي، فهي التي تحدد مدى توافق أفعال الإنسان مع كماله الفعلي، وتوازن بين الرغبات المادية والانفعالات الطبيعية من جهة، ومتطلبات العقلانية والضمير من جهة أخرى. هذا التوازن يمنح الإنسان القدرة على الحكم على أفعاله وتصحيح سلوكه بما يعكس انسجامه مع المبادئ الوجودية العليا، ويضمن ألا ينحرف عن المسار الذي يربطه بالعلّة العليا والنظام الكوني. من زاوية معرفية، تجعل النفس الإنسان قادراً على فهم العلاقات العميقة بين العلة والمعلول، المادة والصورة، الإمكان والفعل، ما يتيح له رؤية الكون كنسق مترابط ومتكامل. بهذا، تتحول النفس إلى نقطة التقاء بين المعرفة الأخلاقية والوجودية والروحية، حيث يصبح كل فعل واعٍ انعكاساً للفهم العميق للوجود، وموافقة لطبيعة الأشياء وفق نسق الكون.

تنضج رؤية ابن سينا في أن الكمال الإنساني لا يقتصر على الإدراك العقلي أو الإنجاز المادي بصورة محدودة وحصرية، بل يشمل تكاملاً بين الوعي الروحي، الفعل الأخلاقي، والمعرفة الفلسفية. النفس إذن هي محور هذا التكامل، فهي تتيح للإنسان أن يعيش في انسجام مع ذاته ومع الكون، وأن يجعل كل تصرف وقرار يعكس فهمه للعلّة العليا والمبادئ الكونية، والفعل الأخلاقي.

البعد الروحي للنفس عند ابن سينا يتجاوز الفهم التقليدي للحياة البيولوجية ليعكس قدرة الإنسان على إدراك موقعه في الكون وربطه بما يتجاوز الظواهر المادية إلى المبادئ العليا والعلّة الفاعلة. عبر النفس يستطيع الإنسان أن يحقق مستوى متقدماً من التأمل والوعي، يمنحه القدرة على فهم النظام الكوني وتقدير العلاقات بين الموجودات، ما يجعل سلوكه وتصرفاته متسقة مع النسق الكلي للكون والقيم الأخلاقية العليا.

يمثل هذا البعد الروحي أيضاً شرطاً لتحقيق الكمال الإنساني الشامل، إذ يجعل الفعل الأخلاقي مستنداً إلى معرفة حقيقية وفهم متكامل للوجود. النفس تمنح الإنسان القدرة على التمييز بين الخير والشر، وتوجيه أفعاله بما يتوافق مع القيم العليا التي تتصل بالعلّة الفاعلة، وتساعد على بناء سلوك متوازن بين الرغبات المادية والقدرات العقلية والوعي الروحي.

المحور الرابع: الإبداع الإلهي عند الكندي وتمثلاته في فكر ابن سينا

يمثل مفهوم الإبداع الإلهي عند ابن سينا أحد الركائز الأساسية لفهم العلاقة بين الله والكون، وهو المفهوم الذي يعكس كيف يرتبط كل موجود بالعلّة العليا التي تمنحه وجوده واستمراريته. فالإبداع عند الفلاسفة المسلمين الأوائل لم يكن مجرد فعل خلق لحظي أو إنتاج مؤقت للأشياء، بل كان فعلاً كلياً شاملاً ينبع من الذات الإلهية بشكل دائم ومستمر، دون أن يتأثر الله بوجود المخلوقات أو يطرأ على ذاته أي نقصان نتيجة هذا الفعل. هذا الفهم يعطي الإبداع بعداً وجودياً عميقاً، إذ يجعل كل موجود ليس مجرد نتيجة عارضة، بل جزءاً من نظام مترابط لا ينقطع عن المصدر الأول للوجود.

الكندي يوضح هذا المعنى بشكل دقيق عندما يقول: «فثم فاعل على الحقيقة، ففعله إيجاد الأشياء بعد أن لم تكن، دون أن يتأثر هو بذلك، وهو فاعل حق واحد لا فاعل بالمعنى الحق غيره، هو الله وفعله هو الإبداع» (الكندي، ١٩٥٠، ج ٢، ص ١٣١).

تظهر هذه العبارة أن الفعل الإلهي ليس نشاطاً عارضاً أو محدوداً بزمن، وإنما هو فعالية جوهرية مستمرة تمنح الموجودات حياتها وكيانها. فالله الفاعل، وفق هذا التصور، لا يُنتج الأشياء لمرة واحدة فقط، وإنما يستمر في إبقاء كل الموجودات مرتبطة به، وتظل في كينونتها بفضل العلّة العليا. هذا الفعل الإلهي المستمر يمنح الكون نوعاً من الثبات والانسجام، ويجعل كل موجود قادراً على التفاعل ضمن نسق الوجود بشكل متكامل ومتناسق.

يستفيد ابن سينا، إلى حد كبير، من هذه الرؤية ويطورها لتصبح أساساً لفلسفة مترابطة تشمل العلّة والوجود والنفس. بالنسبة له، المعلولات لا تمتلك وجودها بذاتها، بل تحتاج إلى اتصال دائم بالعلّة العليا لتحقيق الفعل. كل شيء في الكون مرتبط بهذا الفعل الإلهي المستمر، وكل كائن يحصل على وجوده الفعلي من هذا الاتصال الدائم بالمصدر الأول. من هذا المنطلق، يصبح الإبداع الإلهي أكثر من مجرد فعل ابتداعي، إذ يمثل استمرارية للوجود بأسره، ويخلق نظاماً مترابطاً يربط الموجودات بالعلّة العليا بشكل دائم ومستمر.

نستطيع القول بأن العقل والنفس عند ابن سينا يتيحان للإنسان فهم هذا النسق المعقد، إذ يمكن للعقل البشري أن يدرك ترتيب الموجودات واستمرارية الإبداع الإلهي، وتصبح المعرفة الإنسانية جزءاً من هذا النسق الكوني. الإنسان قادر على التأمل في الكون، إدراك علاقة العلة بالمعلول، وفهم دور النفس في استيعاب هذا الترتيب. بهذا الشكل، يتحول الإبداع الإلهي إلى تجربة معرفية وفلسفية: ليس مجرد تصور نظري، بل واقع يمكن للإنسان من خلاله فهم النظام الكوني، استيعاب أصل الموجودات، والإحاطة بمستويات الوجود المختلفة.

إن هذا الربط بين الإبداع الإلهي، العلة العليا، والنفس البشرية يجعل فلسفة ابن سينا فلسفة شاملة، حيث يتكامل الوجود العقلي مع الوجود الفعلي، والمادي مع الروحي. كل موجود يصبح جزءاً من نسق مترابط، والعقل البشري يمتلك القدرة على كشف هذا النسق وفهم ديناميكية الفعل الإلهي المستمر. بهذا، تقدم فلسفة ابن سينا رؤية عميقة عن الكون والوجود، تجعل العلاقة بين الله والكون علاقة حية، متجددة، وشاملة لكل الموجودات، وتعطي الإنسان موقعه الطبيعي في هذا النسق ككائن قادر على الفهم، الإدراك، والفعل المستتير ضمن إطار الفعل الإلهي المستمر.

تحليل المفهوم عند ابن سينا

ينطلق ابن سينا من تصورات الكندي ليضع مفهوم الإبداع الإلهي ضمن نسق الفيض الوجودي الذي يربط بين الله والكون وكل الموجودات. الله، بوصفه الواجب الوجود، يمثل المصدر الأول والأساسي لكل ما هو موجود، ولا يمكن لأي كائن أن يتحقق في الوجود الفعلي إلا من خلال اتصال دائم ومستمر بهذا الفعل الإلهي الذي يمنحه كيانه وحيويته.

كل الموجودات الممكنة تعتمد على هذا الفعل لتحقيق بالفعل، فالإبداع الإلهي هو استمرار دائم في العطاء الوجودي الذي يحافظ على استمرارية الكائنات وترابطها ضمن النظام الكوني ولا يمكن أن يكون مقتصرًا على البداية. بهذا الفهم، يصبح كل كائن قادرًا على اكتساب وجوده الفعلي بفضل العلة العليا، ويظهر ارتباطه المباشر بالواجب الوجودي، ما يضمن استمرارية الفعل الكوني وانسجام جميع الموجودات ضمن نسق مترابط.

يبنى ابن سينا على هذا الأساس نسقه الفلسفي، موضحاً أن الإبداع الإلهي يتجلى في ترتيب الموجودات بشكل شامل، من خلال وحدة المادة والصورة التي تمنح كل كائن كماله البنوي، وصولاً إلى النفس التي تمثل كمال الجسم الطبيعي وقدرته على الإدراك والفعل الواعي. هذا الترتيب يتيح للإنسان إدراك نسق الوجود وفهم العلاقة العميقة بين العلة والمعلول، والتمييز بين العالم المحسوس والعالم الفكري، بما يجعله قادرًا على المعرفة والفعل الأخلاقي.

الفعل الإلهي والعلّة العليا

يبرز ارتباط هذا المحور بالمحاور السابقة بشكل واضح، إذ كما أظهرنا في المحور الأول، لا يمتلك المعلول وجوده بذاته، فهو محتاج إلى علّة تمنحه القدرة على الفعل والوجود. الإبداع الإلهي عند ابن سينا يمثل تجسيداً عملياً لهذه العلّة العليا، فهو الفعل الذي يجعل الممكنات موجودة بالفعل، مع ضمان عدم تأثر الذات الإلهية بوجود هذه المخلوقات، كما أشار الكندي في فلسفته.

يربط هذا التصور الفعل الإلهي بالضرورة الوجودية، حيث يصبح كل موجود متصلاً مباشرة بالواجب الوجود الذي يمنحه كماله ووجوده الفعلي. لا يقتصر الإبداع على لحظة البداية، بل يمتد كفيض مستمر يعيد إنتاج الموجودات في كل لحظة من الوجود، ما يحفظ وحدة الكون ويضمن ترابط جميع المخلوقات ضمن نسق متكامل.

العلاقة بالنفس والوجود البشري

الإبداع الإلهي عند ابن سينا يتجاوز حدود الموجودات المادية ليشمل النفس الإنسانية بوصفها محور الكمال الوجودي للإنسان. فالنفس، باعتبارها كمالاً للجسم الطبيعي، تتحقق بالفعل من خلال الفعل الإلهي المستمر، فتكتسب القدرة على الإدراك، والفعل المعرفي، والفعل الأخلاقي. يصبح الإنسان بهذا الإدراك أكثر من مجرد كائن حي يمتلك القدرة على الحياة بالقوة، إذ يمتلك القدرة على الفعل الواعي والتفاعل الروحي والفكري مع العالم المحيط به، ما يمنحه القدرة على المشاركة الفعلية في نسق الوجود. الاتصال المستمر بين الفعل الإلهي والنفس يجعل كل فعل بشري جزءاً من النظام الكوني وترابطه مع العلّة العليا. تتلقى النفس وجودها وكمالها من هذا الفعل المستمر، فتتمكن من التمييز بين الخير والشر، واكتساب المعرفة الصحيحة، وتحقيق السلوك الفاضل. يصبح الإنسان حلقة وصل بين المادة والصورة، وبين العالم المحسوس والعالم العقلي، وبين الإمكان والفعل، ما يضعه في موضع الوسيط الذي يربط الكائن بالمصدر الكلي للوجود.

توضح فلسفة ابن سينا بهذا المعنى أن الوجود الإنساني والفعل الإلهي مرتبطان ارتباطاً جوهرياً، إذ أن كمال النفس البشرية لا يكتمل إلا من خلال الفعل الدائم للعلّة العليا. هذا التكامل يمنح الإنسان القدرة على فهم نسق الكون بعمق، والارتقاء الأخلاقي والروحي، وتحقيق الكمال الفردي والاجتماعي ضمن نظام مترابط ومتكامل.

البعد الفلسفي والمعرفي

يرى ابن سينا أن الفعل الإلهي يشكّل جسراً يربط العالم المادي بالعالم العقلي، إذ لا يقتصر دوره على خلق الموجودات الخارجة عن النفس، بل يتجاوز ذلك ليصبح تجسيداً للترتيب الكوني والمعرفي الذي يمكن النفس البشرية من الوصول إلى المعرفة الكاملة والفعل الواعي. يمنح الإبداع الإلهي الممكنات

القدرة على التحقق بالفعل، ويتيح للنفس البشرية التفاعل مع العالم المحسوس وفهم المبادئ والأسباب الكامنة وراء الأشياء، ما يجعل كل فعل بشري مرتبطاً بالنسق الكوني وبالعلّة العليا.

تبرز فلسفة ابن سينا بهذا النظام الترابط الوثيق بين الميتافيزيقا، المعرفة، والفعل الإنساني، إذ يُنظر إلى الإنسان ككائن يشارك في الفعل الكوني ويمثل حلقة فاعلة ضمن نسق متكامل من الوجود. يتيح هذا الفهم رؤية شاملة للكون والنفس والفعل، حيث يصبح كل موجود جزءاً من منظومة مترابطة تتفاعل فيها العلة والمعلول، المادة والصورة، العقل والنفس، لشكل وحدة فلسفية متكاملة تجمع بين النظرية والمعرفة والفعل الأخلاقي والوجودي.

المحور الخامس: العلم الإلهي والعلم النبوي - تفسير ابن سينا للآية «إنه يعلم الجهر وما يخفى»
يتضح من فلسفة ابن سينا أن العلم الإلهي يشكل حجر الزاوية لفهم المعرفة البشرية، ويكتسب أهمية خاصة في سياق معرفة الأنبياء، إذ يربط بين العلة العليا، النفس، والفعل الإلهي الذي سبق تناوله في المحاور السابقة. فالعلم الإلهي ليس مجرد إدراك خارجي أو نظري للوقائع، بل هو عملية مستمرة تشمل تأثير الفعل الإلهي على النفس البشرية، ما يمكن الإنسان من تحقيق إدراك دقيق ووعي حقيقي بالحقائق. يفسر الشيخ الرئيس قول الله تعالى: «إنه يعلم الجهر وما يخفى» (الأعلى: ٧) قائلاً: «فالمراد أنه تعالى وعده أن يجعل جوهر نفسه عالماً بالمعلومات المطابقة عليها محيطاً بها، والمؤثر في كل حال وكما أقوى من الأثر، فلولا كونه تعالى عالماً بالمعلومات كلها لما قدر على جعل روح النبي ﷺ عالماً بها مبرءاً عن السهو والنسيان» (عاصي، حسن، ١٩٨٣، ص ٩٨).

من هذا المنظور، تصبح المعرفة النبوية امتداداً للعلم الإلهي، تمنح النبي القدرة على إدراك الحقائق الكونية والوجودية بدقة، بما يتوافق مع ترتيب الكون وعلاقات العلة بالمعلول، المادة بالصورة، والنفس بالفعل الإلهي. تعد المعرفة عند ابن سينا انعكاساً للنسق الكوني الكامل، إذ يرتبط إدراك الإنسان مباشرة بالإبداع الإلهي وبالنسق المتكامل للوجود.

بهذا الشكل، يتحول العلم الإلهي إلى أساس الفعل الأخلاقي والفهم الروحي، ما يجعل معرفة الإنسان والأنبياء جزءاً من منظومة مترابطة تجمع بين الفعل الإلهي، العقل البشري، والنظام الكوني. فلسفة ابن سينا تعكس بهذا وحدة متكاملة بين الوجود، المعرفة، والفعل الأخلاقي، وتوضح أن كل إدراك بشري واعٍ هو امتداد مباشر للفعل الإلهي المستمر، ما يجعل الإنسان قادراً على التفاعل الواعي مع العالم وتحقيق الكمال الأخلاقي والروحي في إطار نسق فلسفي مترابط.

يؤكد ابن سينا أن العلم الإلهي شامل ومطلق، محيط بكل الموجودات والأحداث، لا يخفى عليه شيء. يمثل هذا العلم الإلهي العلة العليا التي تضمن إمكانية تحقيق المعرفة البشرية الكاملة، ولا سيما معرفة الأنبياء، إذ لا يمكنهم بلوغ العلم الكامل إلا بفضل الفعل الإلهي المباشر المستمر.

هكذا، يصبح العلم النبوي امتداداً طبيعياً للعلم الإلهي، فهو لا يقتصر على النقل أو الاكتساب البشري المحدود، بل هو تأثير مباشر للفعل الإلهي على النفس الكاملة. هذا التأثير يمكن النبي ﷺ من إدراك الحقائق بما يتوافق مع النظام الكوني والعلاقات بين العلة والمعلول، المادة والصورة، والنفس والفعل الإلهي، دون أي سهو أو نسيان.

من هذا المنظور، يربط ابن سينا بين العلم، الفعل الإلهي، والكمال الوجودي للنفس، بحيث يصبح العلم النبوي انعكاساً مباشراً للعلّة العليا. وهكذا، تصبح المعرفة البشرية المرتبطة بالعالم الواقعي والعقلي جزءاً من نسق وجودي وفلسفي متكامل، يعكس وحدة الفعل والمعرفة والوجود في فلسفة ابن سينا، ويبرز التفاعل الدائم بين الإنسان والكون والفعل الإلهي في إطار كلي متسق.

الأبعاد الفلسفية للعلم الإلهي

يؤكد ابن سينا أن العلم الإلهي لا يقتصر على كونه مجرد معرفة كمية للأشياء، بل هو كمال معرفي شامل يحيط بكل الموجودات والأحداث، ويشمل كل الأسباب والنتائج. هذا الكمال المعرفي يجعل العلم الإلهي مرجعاً لضمان سلوك الإنسان وفق القيم الأخلاقية التي تنبثق من المعرفة الصحيحة، فالفعل الأخلاقي مرتبط مباشرة بالإدراك الدقيق للعلل والنتائج.

يصبح العلم الإلهي أيضاً نقطة التقاء بين الفلسفة والروحانية، بين العقل والغاية، فهو يجمع بين الإدراك العقلي للكون وفهم المبادئ الوجودية، وبين التأمل الروحي والوعي الأخلاقي للفعل البشري. بهذا الشكل، يتيح للإنسان والنبي ﷺ على حد سواء الوصول إلى معرفة شاملة ومتسقة تربط بين الفعل الإلهي، كمال النفس، وفعل الإنسان الواعي، مما يجعل فلسفة ابن سينا في العلم الإلهي رؤية متكاملة تربط بين الميتافيزيقا، الأخلاق، والفعل المعرفي.

المحور السادس: التكامل الميتافيزيقي - من العلة إلى النفس، ومن الفعل الإلهي إلى المعرفة

يمثل هذا المحور الخاتمي للدراسة محاولة ربط كل المفاهيم الأساسية في فلسفة ابن سينا ضمن نسق واحد متكامل يظهر كيف تتصل العلة بالمعلول، والمادة بالصورة، والنفس بالإبداع الإلهي، وصولاً إلى العلم النبوي. فلسفة ابن سينا من خلال هذا النسق تقدم رؤية كلية للوجود البشري والعالم، حيث لا عنصر قائم بمعزل عن الآخر

النسق الوجودي عند ابن سينا

ينظر ابن سينا إلى العلة العليا، أو الواجب الوجود، باعتبارها المصدر الأول لكل موجود، فهي التي تمنح الممكنات وجودها بالفعل من خلال فعل إلهي متواصل لا ينقطع. هذا الفعل ليس بداية حادثة في الزمن، بل استمرار دائم يحفظ وحدة الكون وترابط مكوناته. وكل معلول لا يمتلك وجوده من ذاته، وإنما يتحقق بقدر قربه واتصاله بالعلّة العليا، مما يجعل وجوده ضرورة عقلية ووجودية داخل النسق الكوني.

يمثل اتحاد المادة بالصورة خطوة أساسية في تحقيق الوجود الفعلي للأشياء؛ فالمادة وحدها غير كاملة ولا قادرة على الفعل، والصورة وحدها لا تتحقق إلا بالتجسد في المادة. الاتحاد بينهما يمنح الكائن بنية وظيفية متكاملة، ويظهر كيف ترتبط الموجودات بالعلّة العليا عبر ترتيب وجودي محكم يمتد من العقل إلى الطبيعة.

أما النفس، فهي كمال للجسم الطبيعي القادر على الحياة بالقوة، وتشكّل حلقة الوصل بين الوجود المادي والبعد العقلي والروحي للإنسان. بفضل النفس يصبح الإنسان قادرًا على الإدراك والمعرفة والفعل الأخلاقي، وبها يتصل بالفعل الإلهي المتجدد الذي يمنح الموجودات كمالها. النفس هنا محور للوعي الأخلاقي والتأمل الروحي، ومجال تتفاعل فيه المادة والصورة مع العلة العليا.

يتكامل هذا البناء مع العلم الإلهي الذي ينعكس في المعرفة البشرية، خاصة المعرفة النبوية التي تعد امتدادًا للعلم الإلهي ونتيجة لاتصال النفس بالعقل الفعّال. بهذا تشكّل منظومة فلسفية مترابطة تجمع بين الميثافيزيقا والوجود والمعرفة والفعل، وتُبرز رؤية ابن سينا للكون كنسق متجانس يتصل فيه كل مستوى بما فوقه، من الواجب الوجود إلى النفس الإنسانية، ليغدو الإنسان قادرًا على فهم العالم والارتقاء الأخلاقي والروحي ضمن نظام كوني واحد ومتناسق.

الفعل الإلهي والمعرفة النبوية

ينتقل هذا النسق الفلسفي إلى ميدان العقل والمعرفة، حيث يتجلى الفعل الإلهي باعتباره استمرارًا دائمًا لعمل العلة الأولى في العالم. هذا الاستمرار يمكن الأنبياء من تلقي المعرفة الكاملة من غير سهو أو نسيان، ويجعل الفعل الإلهي ليس مجرد لحظة بدء للكون طبقا للاعتقاد بأن الله خلق الكون بمبادئه وقوانينه ثم تركه يعمل بنفسه دون تدخل مباشر، بل تيارًا وجوديًا متصلًا يمد الموجودات بأسباب الفعل وطاقت الكمال. ومن هنا تتضح وحدة النظام الكوني، إذ يصبح كل موجود جزءًا من شبكة مترابطة يستحيل فهم أي عنصر فيها بمعزل عن البناء الكلي للوجود.

الفعل الإلهي هو الذي يضمن وجود المعلولات، ويهبها القدرة على الفعل الحقيقي، فيحوّل الممكنات من القوة إلى الفعل. وهو اتصال دائم بين العلة العليا وكل موجود، يجعل استمرار الوجود قائمًا على فيض لا ينقطع من الحقيقة الأولى.

أما النفس الكاملة، بوصفها كمالًا للجسم الطبيعي، فهي الوسيط الذي يتيح إدراك هذا الفعل الإلهي. تمثل النفس مركزًا تلاقي فيه المادة والصورة، والعقل والوجود، والإمكان والفعل. ومن خلال هذا المقام النفسي يتاح للإنسان أن يفهم نظام الكون، وأن يميّز بين الخير والشر، وأن ينخرط في تفاعل أخلاقي ومعرفي يعكس وحدة الوجود في فكر ابن سينا.

ويمثل العلم النبوي الامتداد المباشر لهذا الاتصال، فهو ترجمة للعلم الإلهي في النفس الإنسانية في أعلى درجات كمالها. لا يأتي العلم النبوي بالتعلم وحده، بل بتأثير مباشر من الفعل الإلهي الذي يمنح النبي ﷺ القدرة على إدراك الحقائق الكلية والوجودية من غير خطأ أو نسيان، فيصبح علمه جزءاً من العلم الإلهي الذي يحكم الكون ويضمن انتظامه.

وبذلك يتضح أن الفعل الإلهي، والكمال النفسي، والمعرفة الأخلاقية والعقلية، والعلم النبوي، ليست عناصر منفصلة، بل حلقات في نسق واحد متداخل ومتكامل. نسق يجعل الإنسان والنبي جزءاً من حركة متصلة للعلّة الأولى، حيث يتحد الفعل بالمعرفة، ويتكامل الجسد والنفس والعقل، ويتجلى الكون في صورة نظام متسق يتدرج من المادة إلى الصورة، ومن النفس إلى الفعل الإلهي، وصولاً إلى إدراك الحقيقة الشاملة للوجود.

البعد الفلسفي للأخلاق والمعرفة

تكامل هذه العناصر يجعل فلسفة ابن سينا مرآة تجمع بين المعرفة والفعل الأخلاقي، إذ يكشف هذا النسق كيف أن مستويات الوجود، من العلة الأولى إلى النفس الإنسانية، مترابطة بطريقة تجعل كل جزء منها دالاً على الآخر. ومن خلال إدراك الإنسان للعلّة العليا وفهمه للبنية الكلية للوجود، يكتسب قدرة واعية على الفعل الأخلاقي؛ قدرة تُبنى على استيعاب معتمّق للعلاقات بين العلة والمعلول، وبين المادة والصورة، وبين النفس والفعل الإلهي.

المعرفة الصحيحة، في هذا الإطار، هي انكشاف شامل لنسق الكون وترتيبه وغايته. وحين يكون الإدراك العقلي متصلاً بالعلّة الأولى ومتوافقاً مع كمال النفس، يصبح الفعل الأخلاقي انعكاساً طبعياً لهذه المعرفة، بحيث يتشكل السلوك الإنساني وفق بنية الوجود وقوانينه، لا وفق أهواء منفصلة عن الحقيقة.

إن تكامل العلة والنفس والفعل الإلهي يكون نموذجاً فلسفياً متماسكاً يجمع بين الوجود والمعرفة والقيمة. فكل فعل مرتبط بغاية عليا، وكل معرفة تسعى إلى الحق، وكل نفس تكتمل بقدر اقترابها من العقل واستيعابها لنظام الكون. وبهذه البنية يصبح الإنسان قادراً على التفاعل الأخلاقي والعقلي مع العالم بصورة متوازنة، ويغدو سلوكه امتداداً منطقياً لإدراكه الوجودي.

الخاتمة

تبرز هذه الدراسة الأصالة والابتكار في فلسفة ابن سينا، حيث قدم نسقاً متكاملًا يربط بين العلة العليا والمعلول، المادة والصورة، النفس، الفعل الإلهي، والمعرفة الإنسانية والنبوية. يظهر من خلال هذا التكامل كيف أن كل مستوى من مستويات الوجود مترابط بالآخر، مما يمنح الفعل البشري بعداً أخلاقياً ومعرفياً متسقاً مع النظام الكوني. كما تؤكد الدراسة أن فلسفة ابن سينا لا تقتصر على نقل التراث الفلسفي الكلاسيكي، بل تطوره لتصبح رؤية شاملة تدمج بين النظرية والتجربة، بين المادة والروح، وبين الإدراك

البشري والفعل الإلهي. إن فهم هذا النسق الميتافيزيقي يمكّن الإنسان من إدراك العلاقة العميقة بين الوجود والمعرفة والأخلاق، ويبرز قدرة الفكر الفلسفي الإسلامي على تقديم رؤية متكاملة للكون والوجود الإنساني. ومن هذا المنطلق، تمثل هذه الدراسة إسهامًا مهمًا في التعريف بفكر ابن سينا، وإظهار قيمة فلسفته كنموذج لفهم الإنسان والكون في ضوء نسق فلسفي مترابط يجمع بين العقل، الفعل، والمعرفة.

المصادر

- أرسطو (١٩٤٩)، كتاب النفس، ترجمة أحمد الاهواني، القاهرة، دار احياء الكتب العربية، ط١.
- ابن سينا (١٩٣٨)، النجاة، القاهرة، مطبعة السعادة، ط٢.
- ابن سينا (١٤٠٤ هـ الشفاء، قم، منشورات مكتبة آية الله العظمى مرعشي
- ابن سينا (٢٠٠٦)، تسع رسائل في الحكمة والطبيعات، لبنان، دار قابس للطباعة والنشر.
- ابن سينا (١٩٩٢)، الاشارات والتبهيّات، شرح وتحقيق نصير الدين الطوسي، تحقيق سليمان دنيا، مؤسسة النعمان للطباعة والنشر والتوزيع، د ط.
- الكندي (١٩٥٠)، رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق عبد الهادي أبو ريّدة، ج٢، القاهرة.
- عاصي، حسن (١٩٨٣)، التفسير الفلسفي واللغة الصوفية في فلسفة ابن سينا، لبنان، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، ط١.

دانشگاه مجازی المصطفی